

«بس يا بحر» فيلم كويتي يدهش العالم منذ خمسين عاما

شاعرية آسرة وتقنية إخراجية تسبق عصرها

"بس يا بحر" شـريط، ما زال عالقا في ذاكرة عشاق الفن السابع، أنتج عام 1972، وهو كويتي ترشح للمنافسة ضمن فئة أفضل فيلم أجنبي في الدورة الخامسة والأربعين لجوائز الأوسكار، ونال إعجاب من كان يظن من النقاد أن السـينما دخيلة على الخليج العربي، وتتلمس وجودها الآن باحتشام، بعد الطفرة النفطية وبوادر الانفتاح الثقافي والاجتماعي.

حياة صيادي اللؤلؤ، هي الثيمة الأساسية التي يمكن أن يؤسس عليها أي عمل فني خليجي، يروم التأصيل لثقافة المنطقة بغية القول "إننا لسنا

الشريط واحد من الأعمال النادرة التي قالت "بس" للقراءات السطحية قبل ظهور البترول، وما زالت تذكر جمهور السينما بأن الخليج يعج بحكايات لأناس أودعوا سرهم للبحر وحده كفضاء للعيش والأمل والُخيبات، ويذكر بروائع أدب إرنست هيمنغواي، ونيكوس كازنتازاكي، وكذلك حنا مينة، في مقارباته بين البحر وأمزجة شخصياته.

حكيم مرزوقي كاتب تونسي

مئة دقيقة تحبس الأنفاس في فيلم "بس يا بحر"، كتبها عبدالرحمن الصالح، وأخرجها خالد الصديق، ومثل فيها كل من محمد المنصور (في دور صياد لؤلؤ اسمه مساعد) وأمل باقر (في دور محبوبة مساعد نورا).

إضافة إلى مجموعة أخرى من الممثلين من الكويت التي كانت سباقة لتأسيس أهم معاهد الفنون الدرامية في المنطقة، واستقدمت كبار المخرجين والمدرسين العرب في مرحلة مبكرة، تحسدها عليها دول الجوار.

قصة الفيلم تعطى الانطباع منذ البدايات، أن البحر "شخَّصية أساسية" من صناع الحدث في الحكاية، ذلك أنه كريم ومعطاء"، ويقدّم السمك واللؤلؤ والمتعة وحب الأسئلة.

تحولات درامية مرعبة، تجعل من هـذا "الكائـن الكحلـي الأزرق" يغيّـر مزاجه، وينقلب على عشباقه، ويصعب التعامل معه حين يتحول إلى وحش مفتـرس، وإلىٰ حوت شـرس يبتلع من جاءوا يصيدون في قعره فتتحول . الأدوار وتتبدّل، يحقد البحر على "مريديه"، ويمتنع عن كشف أسراره، ويبدأ بالتهام أبنائه دون سبب واضح. ما أراد أن يقوله الشريط هو أن

الاقتراب من البحر -لدى الغواصين في بحر الكويت له أسراره وطقوسه لدى عتاة البحارة، و"محترفي الحوار" معه. إنه وحش وديع وصديق شرس فما أغرب أن تصادق وحشا لأجل العيش، ولكن، ليس من صداقته بدَّ؟ وما معنى أن تغمض عينيك وتحيس أنفاسك، ولا تبالى بالذي سوف يأتى من بحر قد يكون أنيسا أو غدارا. كل ذلك لأجل اللؤلؤ في بعديه الواقعي والرمزي، ومن أجل التعايش مع هذا الجار المزمن.

المقاربة بين البحر وعشساقه في هذا الفيلم الكويتي الآسس، تتجلى في تلك الحوارية المرعبة بين اليابسة والماء، في أعماق النفس البشرية.

ومثل الإبحار في يمّ غير محمود العواقب، يحاول "أبوأحمد" أن يجبر ابنته على زواج لا تشتهيه، وتبحر الفتاة المقهورة مثل مركب لا يعلم وجهته بعد قهر وتعنيف، وكثير من

تمتد عملية المزاوجة بين البحر واليابسة في كون الزواج بالإكراه يشبه التَّجَديف عكس التيار، والبحر هنا، هو سيد الموقف في شريط يقول "لا" فما أصعب أن يقول عربي "لا" في بداية سبعينات القرن الماضي، وما أقوى وأخطر كلمة "لا" في تلك اللرحلة.

مضى الفيلم الكويتي الغاضب في ملامسة قضايا شيه محظورة، إلى حدّ اتهامه بالجرأة الزائدة على اللزوم، ذلك أنه طرح موضوعا في غاية الحساسية داخـل مجتمع محافظ، وضمن شـعاب درامية، يصعب أن تُقرأ بسهولة أو براءة داخل مجموعة عربية

تحكمها تقاليد صارمة. ليس سهلا أن تقول 'بس" فی بدایات سيعينات القرن الماضي لبحر من التناقضات والأوجاع، والأحلام المستباحة. هذا ما قاله فيلم "بس يا بحر" الذي يمثل صرخة بحّار غاضب يجدف عكس التيار. فى الشريط هناك

> حكايةً تجر خلفها حكاية، وتخفيها في

جوفها، تماما مثل عالم اللؤلؤ والمحار، وذلك في طقوس يكتنفها الغموض كما في مشهد القطة التي ترمىٰ في البحر، وهي عادة موغلة في القدم لدى بحارة الخليج، وتكتنز في رمزيتها ألغازا تساعد المتفرج على فك عقد الحكاية بشيء من الغموض الممتع، ولعلها نوع من المزاوجة بين القطة التي لا تتقن السباحة، والفتاة المكرهة على الزواج ممن لا تحبه في قصة الفيلم. وُصف الفيلم بأنه "مريك"، يقترب

منا جميعا، ويمحو الفارق بين اليابسة والبحر، ويقول ما تقوله السفن المتهالكة وأنفاس الغواصين قبل الثروة النفطية. إنه صرخة ملحمية تثبيه الثبعر، وتؤسس للسينما الخليجية بامتياز.

تتمثل فرادة الفيلم في كونه يقترب من الوجدان العربي إلىٰ حد الوجع، يقول ما لا يجرؤ أحد علىٰ قوله. خليحي إلىٰ حد النخاع وعربي إلىٰ حد الغوص في هذه الذاكرة المتخمية بالجراح، وهو صرخة حب واحتجاج في حسها الإنساني المرهف.

من من العرب لا يتذكر هذا الشسريط الندي أبكئ وأدهش الكثير دون ملودرامية مفرطة بل بأسطوب واقعي، عبرت عنه طريقة تصوير كانت رائدة وسباقة في تلك الفترة. كاميرا شبه عائمة، تطفو وتغوص ضمن تقنية لم تكن متوقعة أو متاحة للجميع في سبعينات القرن الماضي.

أيقونة السينما الخليجية

قال عنه الناقد السينمائي أحمد خليل "فيلم عظيم أسلس له الكويتيون، وظل أيقونة في ذاكرة الشعوب"،



تقنية الكتابة التي ميزت هذا الفيلم، جاءت بلغة مشهدية عالية، ورشاقة في الحوار تقترب من الشاعرية، دون أن تهمل تلك العفوية والتلقائية أو تسقط في الافتعال والتصنع



السبعينات من القرن الماضي. إنه سعد الفرج، وطلب من الطلبة أن يرى نقاد ومتابعون أنَّ هذا العمل يصفقوا لي لأنني هنا وفيلمي يعرض السينمائي المتميز ليس غريبا عن المخسرج الكويتي، خالد الصدّيق، صانع الفيلم، وهو الذي تلقىٰ تعليمه الثانوي بالهند، وفي هذه الأثناء تدرب في التصوير السينمائي ببومباي، ثم واصل دراساته وتدريباته السينمائية في الولايات المتحدة، وإنكلترا وإيطاليا، وحصل على درجة الزمالة من جامعة سانت ماري، وذلك لاسهاماته الدارزة، أمامها فبكت وأبكت من حولها، وعندما وقام بتمويل وإنتاج وإخراج العديد ســــألتها قالـــت بكيت من أجلـــك ولأنني من الأفلام الروائية الطويلة والأفلام القصيرة، كما أعد عدة سيناريوهات تذكرت حياتنا القديمة فأبكتني معها". بالعربية والإنكليزية.

> ويذكّر بقدرة على العنفوان. ألا توجد صرخـة غضب في وجـه البحر أبلغ من

التواقة إلىٰ المغامرة".

كلمة "بس يا بحر"؟ فيلم يتذكره كل الذين أحبوا السينما العربية وراهنوا عليها، شدوا الرحال إليها، وآمنوا بأن علىٰ هذه الحياة "حياة أجمل" في هــذه البقعة الضيقة من العالم. تلك هي وظيفة السينما، وبشهادة من كبار

عشباقها ومحترفيها. وفي هذا الصدد يقول المخرج خالد الصديق عن فيلمه إنه "تعبير عن فترة الجنون والغيبوية، حتى أن المشاهد المصورة تحت الماء أحدثت خوفاً وقلقاً في نفس مؤلف الفيلم عبدالرحمن الصالح، الذي ظل يتساءل عن كيفية كتابة عمل تجري أحداثه تحت الماء، وكيفية تنفيذ تلك المشاهد. ثم يضيف الصديق "وكانت مشكلتي الأساسية مع المؤلف هـي إقناعه بأن يكتب ما يدور فـي خياله، ويترك مسؤولية التنفيذ لي، وكان يشاركني في إقناعه مدير التصوير توفيق الأمير". إنه فيلم "الغوص

بالنذات وفسى النذات" كما يقول أحد النقاد المعجبين بهذا الشبريط الآسر، والذي يشكل علامــة فارقة في تاريخ السينما الخليجية،

والعربية عموما.

زالت تحفظها ذاكرة كل من عمل فيه، فهذا الفنان سعد الفرج، يقول في إحدى شبهاداته "بعد العرض الأول سافرت إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراستي هناك، وفى قاعة الدراسية أخبرت أستاذ المادة بأننى أشسارك في فيلم يعرض حاليا في

أما الممثل محمد المنصور فيتذكر قائللا "كانت والدتي ضمن الحضور في افتتاح الفيلم، وكنت أمسك يدها لكى أجلسها في المقعد المخصص لها، فهمست لها في أذنها وهي تجلس وقلت لها يا أمى في نهاية الفيلم ساموت فلا تبكى على فهذا فيلم وليس حقيقة، ولكنها لم تتمالك نفسها وهي تراني

كتابة مشهدية عالية

سر تميز هذا العمل السينمائي وتفرده هو أن كاتبه عبدالرحمن الصالح، قد استلهم القصة وحوارات الفيلم من وحيى التجربة الحياتية والمهنية التي عاشبها والده الذي كان في الأصل بحارا، وكذلك من وحى الحكايات والقصص التى خبرها البحارة الكويتيون القدامي أثناء رحلاتهم الطويلة بحثاً عن اللؤلؤ. وجاء الفيلم معبراً عن هذه الدراما الإنسانية والنفسية وسط الواقع الاجتماعي الصعب في تلك الأزمنة، واقع راهن على الخصوصية المكانية والمعرفية والتراثية المتقاطعة مع طبيعة البحر، وما يتضمنه من ملحمة صارخة بين ضفتى الميلاد والفناء، والفقر والغنى، والموت والحياة.

تقنية الكتابة التي ميزت هذا الفيلم، حاءت بلغة مشهدية عالية، ورشاقة في الحوار تقترب من الشاعرية، دون أن تهمل تلك العفوية والتلقائية أو تسقط في الافتعال والتصنع، كما يدل مشهد الافتتاح في هذا الشريط، وبلهجة كويتية أصيلة ومميزة:

لقطة عاملة للبحر تظهر فيها مجموعة من الصيادين وهم يغزلون شباكهم على الساحل وأصوات تلاطم الأمواج طاغية على المشهد.

أحد الصيادين (أبوإبراهيم) موجهاً كلامه لرفيقه (أبومساعد) الجالس بعيدا عن الصيادين: أنت ما تقولي إش قاعد

يرد رفيقه (أبومساعد) -الفنان سعد الفرج- وعليه ملامح حزن: اللي أطالعه ما تشوفه إنت.



أبوإبراهيم: عيزت وأنا أطالع، ماني

أبومساعد: يا أبوإبراهيم أنا أطالع

أبومساعد: قصدي إن ورا كل ها

أبوإبراهيم: بس يا بومساعد، البحر

أبومساعد (وملامح الانكسار بادية

السكوت والابتسامة في طمع وبخل

كل أهل الكويت عايشين من وراه، إنت

عليه): كريم للضعيف والصبور، انت

تنتظر ساعات وساعات بشبكتك هاذي،

يا الله تعطيك سمجة ولا اسمجتين، أما

الناس اللي مثلي، اللي يلقط وياخذ

بيده اللي يبّي، يعاّنده البحر ويصارعه

المشاركين فيه من ممثلين وتقنيين مع

الصديق، فيشـرح ظروف إنتـاج الفيلم

في إحدى المقابلات التلفزيونية قائلا

"أحببت من خلال هذا الفيلم أن أبين

.. للعالم كفاح الشعب الكويتي والخليجي

ضد الطبيعة -والطبيعة في البحر

عندنا- لأبين حياتهم (حياة أفراد هذا

الشبعب) القاسية قبل اكتشاف النفط".

ويستطرد قائلا "ومع أن هذه العملية

كان لها نوع من المجازفة، لكن الاتفاق

والحماس وجنون السينما أيام الشباب

جعلتني أنسئ كل هذه الجوانب

ويضيف المخرج "أظن أن بالإمكان

تظهر "تيترات" الفيلم وأسماء

ويحطمه، حتى ما يخذ منه كل شي.

صوت إيقاعات بحرية متواصلة.

وأنا وغيري وغيرك، والبحر كريم.

هاى المويه، شوفها كيف تبتسم لي لأني

عارف أسرارها وخفاياها.

أبوإبراهيم مستغرباً: هاه؟

شىايف شىي.

الكويت.. البحر قبل النفط

الجوائز التي نالها الفيلم:

- وحصل علئ تسع جوائز على مستوى العالم ومن ضمنها:
- الجائزة الأولئ، مهرجان دمشق السينمائي، 1972.
- جائزة الشرّف، مهرجان طهران الدولي، 1972. • جائزة النقاد الدوليين،
- مهرجان فينيسيا الدولي، 1972. • جائزة الاختيار "الأسد
- الفضي"، مهرجان فينيسيا الدولي،
- جائزة "هوغو الفضى"، مهرجان شيكاغو العالمي، 1972. ويعتبر أول فيلم على مستوى العالم يحصل على هذا الكم من الجوائس، والجدير بالذكس أنه بعد مرور ما يقارب نصف القرن، ما زال

يعرض ويتم تكريم القائمين عليه ما

بين فترة وأخرى. وتحدث المؤرخ سيف مرزوق الشهملان، في كتابه عن فيلم "بس تاريخ الكويت تم إنتاجه وعرضه في الكويـت، وتدور أحداثه عن الغوص، وتم عرضــه فــي دور الســينما فــي الكويت ودول المنطقة، وحاز الفيلم علىٰ جوائز عديدة".

لدراسة أنثروبولوجية لبيئة الكويت قبل النفط، وأظن أن الفيلم هو المادة الوحيدة المرئية الموجودة في العالم عن الكويت قبل اكتشاف البترول"، متابعا أنه "يعرض جميع الجوانب الحياتية قبل دخول عامل النفط بما في ذلك الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية".



البحر من أمامكم